الفصل الرابع

القصص السياسية

١- مراكزُ القُوَى

كان فى يد صاعد بن مَخْلَد ضمانات كثيرة[١]، وكانت معاملته مع أبى نوح عيسى بن إبراهيم[٢]، وكان صاعدٌ من وجوه النّاس.

فحضر صاعدٌ بين يدى أبى نوح، يحاسبَه فى أموال وجبت عليه، فجرت بينهما مناظرات، فشتم فيها أبو نوح صاعدًا، فردّ عليه صاعد، مثل ما قاله له.

فاستعظم الحاضرون ذلك، واستخفّوا بصاعد، وقالوا له: يا مجنون، ما هذا الفعل؟ قتلتَ نفسَك، ثمّ أقاموه، وخلّصوه من أبى نوح، وقالوا: هذا مجنون، لم يدْرِ ما خرج من رأسه.

فانصرف إلى منزله، متحيّرًا، لا يدرى ما يصنع فيما نزل به، فحدّث أخاه عَبْدون[٣] بما جرى.

فقال له: إن لم تطعنى، قَبَضَ عليك فى غدٍ، وطالبك من المُصَادرة بما لا يَفِى به حالُك، ولا حالُ جميع أهلك، وقتلك -بلا شكّ- تشفيًا.

قال له صاعد: فما الرأى؟

قال: كم عندك من المال، واصدُقنى؟ قال: خمسون ألف دينار.

قال: أتَطِيبُ نفسُك أن تتعرَّى عنها، وتحرسَ دمَك، وما يبقى من حالك وضياعك؟ أم لا تسمح بذلك، فتؤخذ منك تحت المقارع، وتذهب النّفس والنّعمة كلّها؟

---

(١) الضمان: هو أن يتعهد الشخص بتسديد مبالغ مالية كبيرة للدولة نظير إطلاق يده فى أراض أو مصالح يديرها لحسابه.

(٢) يدل السياق على أن أبا نوح هذا هو المسئول عن ديوان الضياع أو الأراضى.

(٣)) من طرائف هذا الخبر ما ذكره عبود الشالجى أن صاعدًا وعبدون كانا نصرانيين ثم أسلم صاعد وبقى أخوه عبدون نصرانيًا، وحين فزع إليه فإنه أخلص له النصح وأنقذه.

فقال له: قد تَعَرَّيْتُ عنها، كى تبقى نفسى.

قال: فادفع إلىّ منها ثلاثين ألف دِرهم، ففعل.

فحملها عبدون، وأتى حاجبَ مـويب بن بَغَا، فقال له: خذ هذه العشرةَ آلاف دِرهم، وأوصلنى إلى فلان الخادم، وكان هذا خادمه الذى يتعشّقهُ موسى، ويطيعُه فى كلّ أموره، ومـوسى إذ ذاك هو الخليفة، وكَـتَبَتُهُ كـالوَزارة، والأمور فى يده، والخليفة فى حِجْره[1].

قال: فأخذ الحاجب ذلك، وأوصله إلى الخادم، فأحضره العشرين ألف درهم، وقال: خـذ هذه، وأوصلنى إلى الأميـر السّاعـة، وأعنّى عليه فى حـاجة أريد أن أسأله إيّاها، ومشورةٍ أشير بها عليه، فأوصله الخادم إليه.

فلمّا مَـثَلَ بين يديه، سعى إليه بكتابه، وقـال له: قد نهبوك، وأخـذوا مالك، وأخربوا ضـياعك، وأخى يجـعل كتـابتَك أجلَّ من الوزارة[2]، ويغلبُ لك على الأمـور، ويوفّر عليك كـذا، ويحـمل إليك اللّيلة، من قـبل أن ينتـصف اللّيل، خمسين ألف دينار عَيْنًا، هديةً لك، لا يريد عنها مكافأة، ولا يرتجعها من مالك، وتستكتبُه، وتخْلَعُ عليه.

فقال موسى: أفكّر فى هذا؟

فقال: ليس فى هذا فكر، وألحّ عليه.

فقال الخادم: فى الدنيا أحد جاءه مثلُ هذا المال، فرده؟ وكاتبٌ بِكاتب، فأجابه موسى، وأنعمَ له.

فقال له عبدون: فتستدعى أخى السّاعةَ، وتشافهُهُ بذلك، فأنْفَذَ إليه، فأحضرَه، وقرّر عليه ذلك، وبات عبْدون فى الدّار لتصحيح المال، فوفّاه.

---

(١) هكذا بدأت رحلة البحث عن مركز قوة للاحتمـاء به من بطش صاحب ديوان الضياع: الحاجب، فالخادم الخاص بالملذات الشاذة، فالقائد التركى المتـسلط على الخليفة.

(٢) يجعل ديوانك الخاص أعظم من دواوين الدولة.

وبكَّر صاعـدٌ، فخَلَعَ عليه لكتابتـه، وأركب الجيش كلَّه فى خدمـته، وانقلبت سامُراء، بظهور الخبر.

فبكَّر بعضُ المتصرِّفين إلى الحسن بن مَخْلَد، وكان صديقًا لأبى نوح، فقال له: قد خُلِع علَى صاعد.

فقال: لأىّ شىء؟

فقال: تقلّد كتابة موسى بن بَغَا، فاستعظم ذلك.

وركب فى الحال، إلى أبى نوح، وقال له: عرفتَ خبر صاعد؟

فقال: نعم، الكلب، قد بلغك ما عاملنى به، واللَّه لأفعلنّ به، ولأصنعنّ.

فقـال له: أنت نائم؟ ليس هذا أردتُ، قـد وَلِىَ الرّجـلُ كـتـابةَ الأميـر موسى ابن بغا، وخَلَع عليه، وركب معه الجيش بأسْرِهِم إلى داره.

فقال أبو نوح: ليس هذا ما ظننته، بات خائفًا منّا، فـأصبحنا خائفين منه، فما الرأى عندك؟

قال: أن أصُلحَ بينكما السّاعة.

فركب الحـسن بن مخلد إلى صاعـد، فهنّأه، وأشار عليـه أن يُصالح أبا نوح، وقال له: أنت بلا زوجة، وأنا أجعلك صِهْـره، وتعتَضِد به، وإن كنت قد نُصرت عليه، فهو مَن تعلمُ موضعَه، ومحلّه، ومحلّ مصاهرته ومودّته، ولم يَدَعَهْ، حتّى أجابَ إلى الصلح والمصاهرة.

فقال له: فـتركبُ معى إليه، فإنّه أبو البـنت، والزّوج يقصِد المرأةَ، ولولا ذاك لجاءك.

فحـمله من يومه إلى أبى نوح، واصطلحا، ووقع العـقدُ فى الحال بينهـما فى ذلك المجلس.

●●●

٢- من السِّجْن إلى الوَزارة

وحدّثنى غيرُ واحد من الكتّاب، عمّن سمع أبا على بن مُقْلة، لما عاد من فارس وزيراً، يحدّث، قال:

من طريف مـا اتّفَقَ لى فى نكبتى هـذه التى أدّتنى إلى الوَزارة، أنّنى أصبـحتُ وأنا محبوسٌ مـقيّد فى حجرة من دار ياقوتَ، أميرِ فـارس، وقد لحقنى من اليأس من الفَـرَجِ وضـيق الصـدر مـا أقْنَطَنِى وكـاد يذهـبُ بعـقلى، وكنّا، أنا وفـلان محبوسيْن، مقيّدين، فى بيت واحد من الحجرة، إلاّ أنّا على سبيل تَرْفِيهٍ وإكرام.

فدخل علينا كـاتبٌ لياقـوت، وكان كثـيراً ما يجـيئنا برسالتـه، فقال: الأمـير يُقرِئكُما السّلام، ويتعرّف أخباركما، ويعرض عليكما قضاء حاجة إن كانت لكما.

فقلتُ له: تقرأ عليه السّلام، وتقول له: قد -واللّه- ضاق صدرى واشتهيتُ أن أشربَ على غـناءٍ طيّب، فإن جاز أن يـسامحنا بذلـك سِراً، ويتّخـذ به مِنّةً علىّ ويداً، تفضّلَ بذلك.

فقال لى المحبوس الذى كان معى: يا هذا، ما فى قلوبنا فضلٌ لذلك.

فقلت للكاتب: أدِّ عنّى ما قلتُ لك.

قال: السمـع والطاعةُ، ومضى، وعاد فـقال: الأمير يقول لك: نَـعَمْ، وكَرامة وعَزَازة، أىَّ وقتٍ شئتَ.

فقلت: الساعةَ.

فلم تمض إلا ساعة، حـتّى جاءوا بالطعام، فأكلنا، وبالمشامّ والفواكـه والنبيذ، وصُفَّ المجلس، فجلستُ أنا والمحبوس الذى معى فى القيْديْن.

وقلتُ له: تعالَ، حتى نشرب، ونتفاءل بأوّلِ صـوت تغنّيه الـمُغنّية، فى سرعة الفرج ممّا نحن فيه فلعلّه يصحّ الفأل.

فقال: أمّا أنا فلا أشـرب، فلم أزل أرفُق به حتّى شرِب، فكان أوّلَ صوت غنّته المغنيّة:

تَوَاعَـدَ لـلبيْن الخَلِيطُ لِيَنْبتُّـوا وقـال لراعى الذّوْدِ موعدُك السّبتُ
ولكـنّهم بانـوا -ولم أدْرِ- بغـتـةً وأفظع شىء حين يفْجَؤُك البَغْتُ

فقال لى: ما هذا ممّا يُتفاءل به، وأىُّ معنى فيه، ممّا يدلّ على فَرَجِنا؟

فقلت: ما هو إلا فألٌ مُبارك، وأنا أرجو أن يفرّق اللّه بيننا وبين هذه الحالة التى نحن عليها، وبين الفرج والصلاح، يوم السبت.

قال: وأخذْنا فى شربنا يومنا، وسكِرْنَا، وانصرفَتْ الـمُغنّية، ومضت الأيّام.

فلمّا كـان يوم السبت، وقـد مضى من النّهـار ساعتـان، إذا بياقـوتَ قد دخل علينا، فارتَعْنا، وقمتُ إليه، فقال: أيّها الوزير، اللّهَ، اللّهَ، فى أمرى، وأقبل إلىّ مسرعًا، وعانقنى، وأجلسنـى، وأخذ يهنّينى بالوَزارة فبُهِتُّ، ولم يكن عندى علمٌ بشىء من الأمر، ولا مقدّمة له.

فأخرج إلىّ كتابًا ورد عليه من القاهر باللّه، يُعلمه فيه بما جرى على الـمُقتدر، ومبايعة النّاس له بالخلافة، ويأمرُه بأخذ الـبيعة على مَنْ بفارسَ من الأولياء، وفيه تقليده إيّاى الوَزارة، ويأمـره بطاعتى، وسلّم إلىّ أيضًا، كتابًا مـن القاهر، يأمرنى فيـه بالنّظر فى أموال فـارس، والأولياء بهـا، واستـصْحاب مـا يمكنى من المال، وتدبير أمر البلد بما أراه، والبِدار إلى حضرته، وأنّه استخلف لى -إلى أن أحضرُ- الكَلْوَذَانىّ.

فحَمِـدتُ اللّه كثيرًا، وشكرته، وإذا الحـدّاد واقف، فتقدّمتُ إليـه بفكّ قيودى وقيود الـرّجل، ودخلتُ الحَمَّامَ، وأصلحتُ أمرى وأمـرَ الرّجل، وخرجتُ فنظرتُ فى الأعمال والأمـوال، وجمّعْتُ مالاً جليلاً فى أيام يسيـرة، وقررتُ أمورَ البلد، واستصحبتُ الرجل معى إلى الحضرة، حتى جلستُ هذا المجلس، وفرّجَ اللّهُ عنا.

●●●

٣- فَنُّ اصطناعِ الأوْلِياء

قال: دعا المأمون يومًا بأبى عبّادَ[١] فدفع إليه كتابًا مختومًا، وأمره أن يأتىَ عَمْرَو بنَ مَسْعَدَة، فيُناظرَه على ما فيه بابًا، بابًا، ويأخذَ تحت كلّ باب خَطه فيه، ويختمَه بِخَاتَمه، وخاتَمِ عمرو، ويحتفظَ به إلى أن يسألَه عنه، ولا يذكره ابتداءً، وأكّد على ذلك.

قال: فعلمتُ أنّها وقيعة، وقد كنتُ شاركتُ عمرًا فى أشياء، فصارت إلينا منها أموال، فخِفْتُ أن تكون مذكورةً فى الكتاب.

فقصدتُ عمْرًا، فوجدته فى بُستان أحمد بن يوسف، يلعب بالشَطَرَنْج مع بعض أصحابه، فعرّفته أنّى محتاج إلى الخَلوة معه.

فقال: دعنى الساعة، فقد استوى لى هذا الدَّسْت، (أى سينتصر فى الدوْر).

فضاق صدرى، وقلبتُ الشطرنج، وقلت: قد سال السّيْل، وهلكنا وأنت غافل، اقرأ هذا الكتاب، فقرأه فطالبتُه أن يكتبَ خطّه، تحت كلّ فصل منه، بحُجّته.

فضحك، وقال: ويُحك، أما تستحى، تخدُم رجلاً طول هذه المدّة، ولا تعرف أخلاقه، ولا مذْهَبَهُ؟

فقلت: يا هذا؟ أخبرنى عنك، إن أقدمتَ على جَحْد[٢] ما فى هذا الكتاب، لتعذّر حجّة ما شاركتُك فيه، أمّا أنا فواللَّهِ ما أجحدُ، ولكن أصبِرُ لأمر الله تعالى.

قال: فتحبّ أن أطلعك على ما هو أشدّ عليك من هذا؟

---

(١) أبو عباد من كُتّاب المأمون، وعمرو بن مسعدة من وزرائه. . وخلاصة ما جرى أن المأمون استدعى كاتبه وقدَّم إليه كشفًا بممتلكات الوزير وطلب منه أن يأخذ توقيعه عليها، ويوقع إلى جانبه ويحتفظ الكاتب عنده بهذا الكشف، ولا يبرزه إلا إذا طلبه المأمون.

(٢) الجحد: الإنكار.

قلت: وما هو؟

فقال: كتاب دفعه إليّ أميرُ المؤمنين منذ سنة، وأمرنى فيه بمثل ما أمرك فى هذا، فعرفتُ ضِيقَ صدرك، فلم أذكره لك.

فكدتُ أموت إلى أن فَرَغ من كلامه، فقلت له: أرنى إيّاه، فأحضره وقرأتُه، وأنا أنتفض، وعمرو يضحك.

فلمّا فرغت منه، قلت: عند اللَّه أحتسب نفسى ونعمتى.

فقال: أنتَ واللَّهِ مجنون.

فقلت: دعنا من هذا، ووقّعْ تحت كلّ فصل.

فنظر إلى جُملةِ ما نُسبَ إليه فى الكتاب، فوجده أربعين ألف ألف درهم، فوقّع فى آخره: لو قَصُرت همّتنا فى هذا القدر وأضعافه، لوَسَعَتْنا منازلُنا، وما يفى هذا، بِدَلْجَةٍ فى بَرْدٍ، أو رَوْحَةٍ فى حرٍّ، وأرجو أن يُطيلَ اللَّهُ بقاء أمير المؤمنين، ويبلغَنا فيه ما نؤمّله به، وعلى يده[1].

وكان جملة ما رُفِعَ عليّ، سبعة وعشرون ألف ألف درهم.

فقال: يا هذا، إنّ صاحبنا ليس ببخيل، ولكنّه رجل يكره أن يطوى معروفه، وإنّما أراد أن يُعلِمَنا أنّه قد عَلِم بما صار إلينا، فأمسَكَ عنه على علم.

ثمّ ختم الكتاب بخاتَمه، وخاتَمى، وانصرفتُ وأنا فى الموت، فلم ألبث أن كتبتُ وصيَتى، وأحكمْتُ أمرى، وكنت سنة مغمومًا، وذاب جسمى.

فقال لى المأمون يومًا: يا أبا عبّاد، قد أنكرتُ حالَك، أتشكو علّة؟

فقلت: لا، يا أمير المؤمنين، ولكنى منذ سنة، حيٌّ كميت لأجل الكتاب الذى دفعه إليّ أميرُ المؤمنين، لأناظرَ عليه عمروَ بنَ مَسْعَدة.

---

(١) هذا من أغرب الحجج التى يذكرها وزير للإثراء واستغلال النفوذ، أنه يبذل جهدًا كبيرًا، ويعانى مشقة، وأنه يستطيع أن يكسب أكثر لو كان فى بيته، والعجب أن المأمون قبل هذا المنطق، وقبل الاستمرار فيه.

فقال: أمسك عنّى، حتى أعيدَ عليك جميع ما جرى بينكما، فحدّثنى بجميع ما دار بيننا، كأنّه كان ثالثنا.

فقلت: لقد استقصى لك الذى وكّلته بخبرِنا، واللّه، ما خَرَمَ منه حرفًا.

فقال: واللّه، ما وكّلتُ بكما أحدًا، ولكن ظنّاً ظننته، وعلمت أنّه لا يدور بينكما غيرُه، ولقد عجبتَ من غير عجب، لأنَّ عقول الرجال يدرك بعضها بعضًا، وهذا عمرو بن مسعدة، أعرفُ بنا منك، وأوسع صدرًا، وأبعدُ همّة، وما أردتُ بما فعلتُ، إلاّ أن تعلمَا أنّى قد عرفتُ ما صار إليكما، وتستكثرانه، فأحببتُ أن أزيل عنكما غَمَّ المُسَاتَرة، وثِقْل المُرَاقبة، وأنّى لمتذمّم لكما، خَجِلٌ من ضَعْفِ أثَرِى عليكما.

فسررتُ، وحرتُ كأنّى أطلِقْتُ من عِقَال، فشكرتُه ودعوتُ له.

ثم قلت: ما أصنع بهذا الكتاب؟

قال: خَرِّقْه إلى لعنة اللّه، وامض مصاحَبًا، آمنًا، فى سِتر اللّه عَزَّ وجَلَّ.

●●●

٤- قَلَقُ الضَّمِير

كان أحمدُ بنُ أبى خالد، بغيضًا، قبيحَ اللهجة، وكان مع ذلك حرآ[١]، وكان يلزمه رجل متعطّل من طلاّب التصرّف يقال له: صالحُ بنُ علىّ الأضْجَم[٢]، من وجوه الكُتّاب، فحدّث، قال:

طالت بى العُطْلَةُ فى أيّام المأمون، والوزير -إذ ذاك- أحمد بن أبى خالد، وضاقت حالى، حتّى خَشِيتُ التكشّف[٣].

فبكّرت يومًا إلى أحمدَ بنِ أبى خالد مُغَلِّسًا[٤]، لأكلّمَه فى أمرى، فرأيتُ بابه قد فُتِحَ، وخرج وبين يديه شمعة، يريد دارَ المأمون.

فلمّا نظر إلىّ، أنكر علىّ بُكُورى، وعبَس فى وجهى، وقال: فى الدنيا أحد بكَّر هذا البُكُور ليشغلَنا عن أمرِنا.

فلم تصبر نفسى أن قلتُ: ليس العَجَبُ منك -أصلحك اللّه- فيما استقبلتنى به، وإنّما العَجَبُ منّى، وقد سهرتُ ليلتى، وأسْهَرْتُ مَن فى دارى تأميلاً لك، وتوقّعًا للصبح، لأصيرَ إليك، فأبثَّك أمرى، وأستعينُ بك على صلاح حالى، وإلاّ فعلىَّ، وعلىَّ، وحلفتُ يمينًا غليظة، لا وقفت ببابك، ولا سألتُك حاجة، حتّى تصيرَ إلىّ معتذرًا ممّا كلّمتنى به.

وانصرفتُ مغمومًا، مكروبًا بما لَقينى به، متندّمًا على ما فَرَطَ منّى، غير شاكّ فى العَطَب، إذ كنت لا أقدرُ على الحِنْث، وكان ابنُ أبى خالد، لا يلتفت إلى إبْرار قَسَمِى.

فإنّى لكذلك، وقد طلعت الشمس، إذ طلع بعض غلمانى، فقال: أحمدُ ابنُ أبى خالد، مُقبل فى الشّارع، ثمّ دخل آخر، فقال: قد دخل دَرْبَنَا، ثمّ دخل

---

(١) كان قاسيًا متجهمًا، ولكنه شريف الصفات، يقدّر الشرفاء.

(٢) طلاّب التصرف: الباحثون عن الوظائف.

(٣) التكشف: انكشاف الحال وظهور علامات الفقر.

(٤) وقت الغلس وهو حين يختلط ظلام آخر الليل بأول النهار.

آخر، فقال: قد وقفَ على الباب، ثمّ تبادر الغِلمان بدخوله الدهليز، فخرجتُ مستقبلاً له.

فلمّا استقرّ به مجلسه في داري، ابتدأتُ أشكره على إبرارِه قَسَمي، فقال: إنّ أمير المؤمنين، كان أمرَني بالبُكور إليه في بعض مُهمّاته، فدخلتُ إليه، وقد غلبني الفكر، لِمَا فَرَطَ منّي إليك، حتّى أنكَر ذلك، فقصصتُ عليه قصّتي معك.

فقال: قد أسأتَ بالرجل، قم، فامض إليه، فاعتذر ممّا قلتَ له.

قلت: فأمضي إليه فارغَ اليد؟

قال: فتريد ماذا؟

قلت: يُقْضَى دَيْنُه.

قال: كم هو؟

قلت: ثلثمائة ألف درهم.

قال: وقِّع له بذلك.

قلت: فيرجع بعدُ إلى الدَّيْن؟

قلت: وَقِّع له بثلثمائة ألف دِرهم أخرى.

قلت: فولاية يُشَرَّف بها.

قال: ولِّه مصر، أو غيرَها، ممّا يشبهها.

قلت: ومعونةً على سفره؟

قال: وَقِّع له بثلثمائة ألف دِرهم ثالثة.

قال: وأخرَجَ التوقيع من خُفِّه، بالولاية، وبتسعمائة ألف دِرهم، فدفع ذلك إليَّ، وانصرف.

●●●

٥- خَصْمٌ شَرِيف

حدّثنى علىّ بن عيسى، وكان ضامنًا لأعمال الخَراج والضياع ببلده، فبقيَتْ عليه أربعون ألف دِينار[١].

وألحّ المأمون فى مطالبته، حتى قال لعلىٍّ بنِ صالح، حاجبه: طالِبه بالمال، وأنْظِرْه ثلاثةَ أيّام، فإن أحْضر المالُ قبل انقضائها، وإلا فاضرِبْه بالسياط، حتى يؤدّيَها أو يتلف.

وكانت بين علىّ بن عيسى وغسّان بن عبّاد عداوةٌ، فانصرف علىٌّ بنُ عيسى من دار المأمون آيسًا من نفسه، لا يقدر على شىء من المال.

فقال له كاتبه: لو عرَّجْتَ على غسّان، وأخبرتَه بخبرك، لرجوتُ أن يعينَك على أمرك.

فقال: على ما بينى وبينه؟! (أى من العداوة والخصومة).

قال: نعم، فإنّ الرجل أريَحىٌّ كريم.

قال: فحملته حالُه على قَبول ذلك، فدخل على غسّان، فقام إليه، وتلقّاه بجميلٍ، ووفّاه حقّه.

فقال له: إنّ الحالَ الذى بينى وبينك، لا يوجب ما أبديتَه من تكْرِمَتى.

فقال: ذاك حيث تقع المنافسةُ عليه والمضايقة فيه، والذى بينى وبينك بحاله، ولدخول دارى حرمةٌ توجِبُ لك علىَّ بلوغَ ما ترجوه، فإن كانت لك حاجةٌ فاذكرها، فقصّ كاتبهُ عليه قصّتَه.

فقال غسّان: أرجو أن يكفيَه اللّه تعالى. ولم يَزِد على هذا شيئًا.

---

(١) نظام الضمان فى العصر العباسى هو نفسه نظام الالتزام فى مصر فى عصر المماليك. يلتزم الضامن بدفع مبلغ للحكومة، فى نظير أن يسمح له بجبايته من الناس (الفلاحين) فى منطقته، وكان الأثرياء يتهربون من الضمان والالتزام لما فيه من جور عليهم.

فمضى على بن عيسى آيسًا من نفسه، كاسفَ البال، نادمًا على قصده، وقال لكاتبه لما انصرف: ما أفدتنى بقصد غسان إلا تعجل المهانة والذل.

وتشاغَلَ فى طريقه بلقاء بعض إخوانه، وعاد إلى داره، فوجد على بابه بغالاً عليها أربعون ألف دينار، مع رسول غسان بن عباد، فأبلغه سلامَه، وعرفه غمّه بما دُفِعَ إليه، وسلم إليه المال، وتقدم إليه بحضور دار المأمون من غد ذلك اليوم.

فبكَّر علىُّ بنُ عيسى، فوجد غسان بن عباد قد سبقه إليها، فلما وصل الناس إلى المأمون، مَثُلَ غسان بن عبّاد بين الصفين، وقال: يا أمير المؤمنين إنّ لعلى ابن عيسى حُرْمة وخدمة، وسالفَ أصل، ولأمير المؤمنين عليه سالفُ إحسان، وقد لحقه من الخُسران فى ضمانه ما قد تعارفه الناس، وقد جرى عليه من حدة المطالبة، وشدتها، والوعيد بضرب السياط إلى أن يتلف، ما حيّره، وقطعه عن الاحتيال فيما عليه من المال، فإن رأى أمير المؤمنين، أن يُجْرِينى على حُسْن عادته فى كرمه، ويشفعنى فى بعض ما عليه، ويضعه عنه، فعل.

قال: فلم يزل بهذا ونحوه، حتى حطه النصف، واقتصر منه على عشرين ألف دينار.

قال غسان: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يجدد عليه الضمان، ويشرِّفه بخلعٍ.

فأجابه المأمون إلى ذلك.

قال: فيأذن أميرُ المؤمنين، أن أحملَ الدواة إليه، ليوقع بذلك، ويبقى شَرَفُ حملها على وعلى عَقبى.

قال: افعل.

ففعل، وخرج على بن عيسى، والتوقيع معه بذلك، وعليه الخلع.

فلمّا وصل إلى منزله، ردّ العشرين ألف دينار، إلى غسان، وشكره.

فردّها غسان، وقال: إنّى لم أستحطها لنفسى، وإنّما أحببتُ توفيرها عليك، واستحططها لك، -واللَّهِ- يعود شىءٌ من المال إلى ملكى أبدًا.

وعرف علىّ بن عيسى، ما فعله معه غسان، فلم يزل يخدُمُه إلى آخر العمر.

●●●

٦- وَلِيُّ العهد فى السِّجن

حكى الخليفةُ المعتضد عن فَترة ولايته للعهد قال:

لما ضَرَّب[1] إسماعيلُ بنُ بليل بينى وبين أبى المُوفَّق، فأوحشه منى، حتى حبسنى الحَبْسَةَ المشهورة، وكنتُ أتخوف القتل صباحًا ومساءً، ولا آمن أن يرفع إسماعيل عنّى، ما يَزيدُ فى غيظ الموفق على، فيأمرُ بقتلى.

فكنت كذلك، حتى خرج الموفق إلى الجبل، فازداد خوفى، وأشفقتُ أن يحدثه عنّى إسماعيلُ بكذب، فيجعل غيبته طريقًا إليه، فلا يكشفه، ويأمر بقتلى، فأقبلتُ على الدعاء والتضرّع إلى اللّه، والابتهال فى تخليصى.

وكان إسماعيل يجيئنى فى كلّ يوم، مراعيًا خَبَرَى، ويُرينى أنّ ذلك خدمةٌ لى.

فدخل إلىّ يومًا: وبيدى المصحف، وأنا أقرأ، فتركتُه، وأخذتُ أحادثُهُ.

فقال: أيّها الأمير، أعطنى المصحف لأتفاءل لك به، فلم أجبه بشىء.

فأخذ المصحف: ففتحه، فكان فى أوّل سطر منه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، فاسودّ وجهه، واربدَّ وخلط الورق.

وفتحه الثانية، فخرج: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥، ٦]. . إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ فازداد قلقًا واضطرابًا.

وفتحه الثالثة، فخرج: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

---

(١) ضرب (بتشديد الراء): أوقع وأثار الخلاف. وهنا استطاع الوزير ابن بليل أن يوقع بين الخليفة وابنه، حتى حبسه.

فوضع المصحف من يده، وقال: أيها الأمير، أنت واللَّه الخليفة، بغير شكّ، فما حقُّ بِشارَتى؟

فقلت: اللَّهَ، اللَّهَ، فى أمرى، احقن دمى، أسأل اللَّه أن يُبْقى أمير المؤمنين، والأمير الناصر، وما أنا وهذا؟ ومثلك فى عقلك، لا يُطلق مثل هذا القول بمثل هذا الاتفاق، فأمسكَ عنى.

وما زال يحدّثنى، ويخرجنى من حديث، ويدخلنى فى غيره، إلى أن جرى حديث ما بينى وبين أبى، فأقبل يحلف لى بأيْمان غليظة، أنه لم يكن له فى أمرى صُنْع، ولا سعايةٌ بمكروه، فصدقته، ولم أزل أخاطبه بما تطيب به نفسه، خوفًا من أن تزيدَ وحشَتُه، فيسرعَ فى التدبير لتَلَفِى، إلى أن انصرف.

ثم صار إلىَّ بعد ذلك، وأخذ فى التنصل والاعتذار، وأنا أظهر له التصديق والقبول، حتى سكن، ولم يشك أنّى معترف ببراءة ساحته.

فما كان بأسرع من أن جاء الموفق من الجبل، وقد اشتدّت علته، ومات فأخرجنى الغلمان من الحبس، فصيّرونى مكانه، وفرج اللَّه عنّى، وقاد الخلافةَ إلىّ، ومكننى من عدوّى إسماعيلَ بن بُليل، فأنفذتُ حُكْمَ اللَّه فيه.

●●●

٧- أنت اليوم.. وأنا غداً

قال عبيد اللَّه بن سليمان:

كنت بحضـرة أبى، فى ديوان الخَراج بـ «سُـرَّ مَن رأى»، وهو يتولاَّه -إذ ذاك- إذ دخل علينا أحمدُ بنُ خالـد الصَّريفينى، فقام له أبى قائمًا فى مـجلسه، وأقعده فى صدره، وتشاغل به[١]، ولم ينظُر فى عمل حـتّى نهض، ثم قام معـه، وأمر غلمانه بالخروج بين يديه.

فاستـعظمتُ أنا، وكلّ من فى الدواوين ذلك، لأنّ رسم[٢] أصحاب الديوان، صغارَهم وكـبارَهم، أن لا يقوموا فى الديوان لأحـد من خلق اللَّه عَزَّ وجَلَّ، ممن يدخل إليهم.

وتبيّن ذلك أبى فى وجـهى، فقال لى: يا بنى، إذا خَلَوْنا، فـسلْنى عن السبب فيما عملته مع هذا الرجل.

قال: وكان أبى يأكل فى الدِّيوان، وينام فيه، ويعمل عشيّاً.

فلمّا جلسنا نأكل، لم أذكّره، إلى أن رأيت الطعام قـد كاد ينقضى، فقال لى: يا بنىّ شغلك الطعام عن إذكارى بما قلتُ لك أن تذكرنى به؟

فقلت: لا، ولكن أردتُ أن يكون ذلك على خَلوة.

فقال: يا بنىّ، هذا وقت خَلوة، ثم قال: أليس قد أنكرتَ، أنت والحاضرون، قيامى لأحمدَ بن خالد، فى دخوله وخروجه، وما عاملته به؟

فقلت: بلى.

قال: كان هذا يتـقلد مصر، فَصَرَفْـتُهُ عنها[٣]، وقد كانت طالت مـدّتُه فيها،

---

(١) تفرغ للاهتمام بالضيف.

(٢) الرسم: التقاليد الوظيفية، أو البروتوكول.

(٣) كان أحمـد بن خالد واليًا على مصر، وفُـصل عن وظيفته، وخلفه فى الـولاية سليمان بن وهب، والد راوية الخبر.

فتتبّعتـه، فوطئتُ آثارَ رجل لم أجد أجملَ منه آثارًا، ولا أعفَّ عن أموال السلطان والرعيّة، ولا رأيتُ رعيّةً لعاملٍ أشكر من رعيّته له.

وكان الحسينُ الخادم المعروف بـ «عَـرَق الموت» صاحبَ البريد بمصر، من أصدق النّاس له، وكـان مع هذا من أبغض النّاس، وأشـدّهم اضطرابًا فى أخلاقـه، فلم أتعلّق عليه بحُجَّة.

ووجدته قد أخّر رفع الحسـاب لسنة مُتقدِّمة ولسنَته التى هو فيها، ولم يسـتتمّها لصَرْفى له عنهـا، ولم يُنفذه إلى الدّيوان، فسُمْـتُه أن يحطُ من الدّخل، وأن يزيدَ فى النّفقـات والأرزاق، ويكْسِرَ من البقايا، فى كلّ سنة مـائة ألف دينار، لآخذها لنفسى، فامتنع من ذلك، فأغلظْتُ له، وتوعّـدته ونزلتُ معه إلى مائة ألف واحدة للسّنتين، وحلفتُ بأيْمان مؤكّدة، أنّى لا أقنع منه بأقل منها[1].

فأقام على امتناعه، وقـال: أنا لا أخون لنفسى، فكيف أخـون لغـيرى، وأزيلُ ما قام به جاهى من العفاف؟

فقيّدته وحبسته، فلم يجب، وأقام مقيّدًا فى الحبس شهورًا.

وكتب «عَـرَقُ الموت»، صاحبُ البـريد، إلى المتوكّل يضـرِّب علىَّ ويحلف أنّ أموال مصر لا تفى بنفقتى ومؤونتى، ويصف أحـمد بن خالد، ويذكر ميل الرّعية إليه، وعفّته.

فبينَا أنا ذات يوم على المائدة آكل، إذ وَرَدَتْ علىَّ رقعةُ أحمدَ بنِ خالد، يسألنى استـدعاءه لمهمّ يلقيه إلىّ، فلم أشكّ أنّه قـد غَرِضَ[2] بالقيد والحـبس، وقد عزم على الاستجابة لمرادى.

فلمّا غسلتُ يدى دعوتُهُ، فاستخْلانى، فأخْليتُهُ، فقال: أمّا آن لك يا سيّدى أن تَرِقَّ لى ممّا أنا فيه، من غير ذنب أذنبته إليك، ولا جُرم، ولا قديم ذَحْل[3]، ولا عداوة.

---

(١) هنا يعترف الوالى الجديد بأنه حاول إكراه الوالى السابق على تزوير الدفاتر القديمة ليتمكن من سرقة نسبة من دخل الدولة.

(٢) ضاق صدرًا.

(٣) الذحل: الثأر.

فقلت: أنت اخترتَ لنفسك هذا، ولو أجبتنى إلى ما قد سمعتَ يمينى عليه، لتخلّصت، فاستجب لما أريد منك.

فأخذ يستعطفنى، فجاءنى ضدُّ ما قدّرته فيه، وغاظنى، فشتمتُه، وقلت: هذا الأمر المهمّ الذى ذكرتَ فى رقعتك أنّك تريد أن تلقيه إلىّ هو أن تستعطفنَى، وتسخرَ منّى، وتخدعَنى.

فقال: يا سيّدى، فليس عندك الآن غيرُ هذا؟

فقلت: لا.

فقال: إذا كان ليس غير هذا، فاقرأ يا سيدى هذا.

وأخرج إلىّ كتابًا لطيفًا مختومًا فى رُبع قرطاس، ففضضته، فإذا هو بخطّ المتوكّل[1] الذى أعرفه، إلىّ، بالانصراف، وتسليم ما أتولاه إلى أحمد بن خالد، والخروج إليه مما يلزمنى، ورفع الحساب إليه، والامتثال لأمره.

فورد علىّ ذلك أقبحَ مَوْرِد، لقرب عهد الرّجل بشتمى له، وأنّه فى الحال تحت مكارهى وحديدى، فَأمسكتُ مبهوتًا.

ولم ألبث أن دخل أميرُ البلد فى أصحابه وغلمانه، فوكّل بدارى، وجميع ما أملكه، وبأصحابى، وغلمانى، وجَهَابِذَتى، وكُتّابى، وجعلتُ أرحف من الصّدر، حتّى صرتُ بين يدى أحمد بن خالد وهو فى قيوده.

فدعا أميرُ البلد بحداد، ففكّ قيوده، فمددتُ رجلىَّ، ليوضعَ فيهما القيد، فقال لى: يا أبا أيوب، ضُمَّ أقدامك ووثب قائمًا، وقال لى: يا أبا أيوب، أنت قريب عهد بعَمَالة هذا البلد، ولا منزل لك فيه ولا صديق، ومعك حُرُم وحاشية كبيرة، وليس تَسَعُك إلا هذا الدار -وكانت دار العمالة- وأنا أجد عِدّة مواضع، وليس لى كبير حاشية، ومن نكبة خَرَجْتُ، فأقم بمكانك.

وخرج، وصرف التوكيل[2] عنّى، وعن الدّار، وأخذ كتّابى وأسبابى إليه.

---

(١) الخليفة المتوكل الذى أعاد الوالى المحبوس إلى منصبه فجأة.

(٢) الحراسة الخاصة بقصد تقييد الحرية.

فلمّا انصرف، قلتُ لغلمانى: هذا الذى نراه فى النوم، انظروا من وكّلَ بنا؟

فقالوا: ما وُكّلَ بنا أحد.

فعجبتُ من ذلك عجبًا شديدًا، وما صلّيتُ العصر حتّى عاد إلىّ جميع مَن حمله معه من المتصرفين والكُتّاب والجهابذة، وقالوا: أخذ خطوطنَا برَفْعِ الحساب، وأمرنا بالملازمة، وأطلقنا، فازداد عَجَبى.

فلمّا كان من الغد، باكَرَنِى مُسَلِّمًا، ورحتُ إليه فى عشيّة ذلك اليوم مسلّمًا عليه.

فأقمتُ على ذلك ثلاثين يومًا، يغدو إلىّ، وأروحُ إليه، وربما غَدَوْتُ أنا، وراح هو، وهداياه وألطافُه تأتينى فى كلّ يومٍ من الفاكهة، والثلج، والحيوان والحلوى.

فلمّا كان بعد ثلاثين يومًا، جاءنى، فقال لى: قد عشقتَ مصرَ يا أبا أيّوب، واللّه ما هى طيّبةُ الهواء، ولا عذبة الماء، وإنّما تطيب بالولاية والاكتساب، ولو دخلتَ إلى «سُرّ مَنْ رأى» لما أقمتَ إلاّ شهرًا حتّى تتقلّد أجلّ الأعمال.

فقلتُ له: واللّهِ، ما أقمتُ إلا توقّعًا لأمرِك فى الخروج.

فقال: أعطنى خطّ كاتبك، بأنّ عليه القيامَ بالحساب، واخرج فى حفظ اللّه فأحضرتُ كاتبى، وأخذ خطّه كما أراد، وتسلّمه، وقال: اخرج فى أىّ وقتٍ شئتَ.

فخرجتُ من غدٍ، فخرج هو وأميرُ البلد وخاصّتُه، ووجوهُ أهله، فشيّعونى إلى ظاهر البلد، وقال لى: تقيم فى أوّل منزلٍ على خمسةِ فراسخ، إلى أن أريحَ عِلّةَ[1] قائد يصحبك إلى الرّملة، فإنّ الطريقَ فاسد.

فاستوحشتُ من ذلك، وقلت: هذا إنّما غرّنى حتّى أخرِج كلّ ما أملكه، فيتمكنّ منه فى ظاهر البلد، فيقبضه، ثمّ يردّنى إلى الحبس والتوكيل والمطالبة، ويحتجّ علىّ بكتاب يذكر أنّه ورد عليه ثانيًا.

---

(١) أتمكن من تجهيز قائد.

فخـرجتُ، وأقمتُ بالمرحلة التى أمر بهـا، مستسلمًـا، متوقعًـا للشرّ، إلى أن رأيتُ أوائلَ عسكر مقبلٍ من مصر.

فقلتُ لعله القـائد الذى يريد أن يصحبنى، أو لعـلّه الذى يريد أن يقبض علىَّ به، فأمرتُ غلمانى بمعرفة الخبر.

فقالوا: قد جاء أحمدُ بنُ خالد العامل بنفسه.

فلم أشكَ إلاّ أنّ البلاء قد ورد بوروده، فخرجتُ من مِـضْرَبى، فلقيته وسلمت عليه، فلمّـا جلس، قال: أخلونا؟ فلم أشكّ أنّه للقبض علىَّ، فطار عـقلى، فقام من كان عندى، ولم يبق غيرى وغيرهُ.

فقـال: أعلمُ أنّ أيّامك لم تطل بمصر، ولا حظيتَ بكبـير فـائدة، وذلك الباب الذى سألتنيـه فى ولايتك فلم أستجب إليه، إنّمـا أخرت الإذن لك فى الانصراف من أوّل الأمـر إلـى الآن، لأنّى تشـاغلتُ بالـفـراغ لك منه، وقـد حـططتُ من الارتفاع[1]، وزدتُ فى النفـقات، فى كلّ سنة خـمسـةَ عَشَـرَ ألف دينار، تكون للسنتين ثلاثين ألف دينار، وهو يقـرب ولا يظهر، ويكون أيسر ممّا أردته منّى ذلك الوقت، وقد تشاغلتُ به حـتّى جمعتُه لك، وهذا المال على البغـال قد جئتَك به، فتقدمَ إلى من يتسلّمه.

فتقدّمتُ بقـبضه، وقبّلتُ يده، وقلت: واللّه، قد فلعتَ يا سـيّدى ما لم تفعله البَرامكة، فأنكر ذلك، وتقبَّض منه، وقبّل يدى.

وقال: ههنا شىء آخر أريد أن تقبله.

فقلت: وما هو؟

قال: خمسة آلاف دينار قد استحققتها من أرزاقى، فامتنعتُ من ذلك، وقلت: فيما تفضّلتَ به كفاية.

---

(١) أى زاد فى المصروفـات، وقلل فى الإيراد، بما يسمح باقـتناص جزء من المال العـام لنفسـه، أو للآخر، وهكذا رضى طواعية بما لم يرض به كرهًا من قبل، وفى الحالين هو سارق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فحلف بالطلاق، أنّى أقبلُها منه، فقبلتها.

ثمّ قال: وههنا ألطاف من هدايا مصر، أحببتُ أن أصحبك إيّاها، فإنّك تمضى إلى كُتّاب الدواوين ورؤساء الحضرة، فيقولون لك: ولِّيتَ مصر، فأين نصيبُنا من هداياها؟ ولم تطل أيّامك، فتعدّ لهم ذلك، وقد جمعتُ لك منه ما يشتمل عليه هذا الثَّبَتُ.

وأخرج إلىّ دُرجًا فيه ثَبَتٌ جامع لكلّ شىء فى الدّنيا حسن طريف، جليل القدر، من ثياب دَبِيقى، وقصب، وخَدَمٍ وبغال، ودواب، وحمير، وفُرُش، وطيب، وجوْهَر، حتّى أقلام ومِداد، ما يكون قيمته مالاً كثيرًا.

فأمرتُ بتسلّمه، وزدتُ فى شكره.

فقال لى: يا سيّدى، أنا مغرم بحبّ الفَرْش، وقد استعمل لى فرش بيت أرمنّى، وهو عشر مصلّيات بمخادّها، ومساندها، ومساوِرها، ومطارِحها، وبُسُطها، وهو مذهب، بطُرُز مذّهبه، قد قام علىّ بخمسة آلاف دينار، على شدّة احتياطى، وقد أهديتهُ لك، فإن أهديتَه للوزير عَبْدَكَ، وإن أهديته للخليفة ملكتَه به، وإن أبقيته لنفسك وتجمّلت به[1]، كان أحبَّ إلىّ.

قال: وحمله، فما رأيتُ مثله قَط، ولا سمحت نفسى بإهدائه إلى أحد، ولا استعماله، وما ابتذلتُ منه شيئًا غير هذا الصّدر ومسنده ومساوره، يوم إعذارك[2]، أفتلومنى على أن أقوم لهذا الرّجل، يا بنىّ؟

فقلتُ: لا واللّه يا أبتِ، ولا على ما هو أكثر من القيام، ولو كان مستطاعًا.

فكان أبى بعد ذلك، إذا صَرَفَ[3] رجلاً، عامله بكلّ جميل، ويقول: علّمنا أحمد بن خالد، حُسْنَ الصّرف، أحسن اللّه جزاءه.

●●●

(١) اعتراف خطير بعمومية البلوى وانتشار الرشوة فى نيل الوظائف الكبرى فى دولة الخلافة.

(٢) الإعذار: الختان أو الطهارة.

(٣) صرف رجلاً: أنهى عمله.

٨- الاستخبارات الخاصة

حدّثني شيوخ الكتّاب:

أنّ القاسم بنَ عبيْد الله الوزير، لما انفرد بالوَزارة بعد موت أبيه، كان يحبّ الشُّرب، واللّعب، ويخاف أن يتّصل ذلك بالمعتضد[١]، فيستنقصه، وينسبه إلى الصبيانيّة، والتهوّك[٢] في اللّذات، والتشاغل عن الأعمال، وكان لا يشرب إلاّ في الأحايين، على أخفى وأسترَ ما يمكنه.

وأنّه خلا يومًا مع جواريه، ولبس من ثيابهنّ المصبَّغات[٣]، وأحضر فواكه كثيرة، وشرب، ولعب، من نصف النهّار إلى نصف اللّيل، ونام بقية ليلته، وبكّر إلى المعْتضِد على رسمه للخدمة، فما أنكر شيئًا.

وبكّر في اليوم الثاني، فحين وقعت عين المعتضِد عليه، قال له: يا قاسم، ما كان عليك لو دعوتنا إلى خَلوتك، وألبستنا معك من ثيابك المصبَّغات.

قال: فقبّل الأرض، وورّى عن الصّدق، وأظهر الشكر على هذا البسْط، وخرج وقد كاد أن يتلف غمًّا لوقوف المعتضِد على هذا السّر، وكيف رَقَى إليه، وأنه إذا لم يَخْفَ عليه هذا القدر من أمره، فكيف تخفى عليه مَرافِقُه[٤]، فجاء إلى داره كئيبًا.

وكان له في داره صاحبُ خَبَر[٥] جَلْدٌ يرفع إليه الأمور، فأحضره، وعرّفه ما جرى بينه وبين المُعتضِد، وقال له: ابحث لي عمَّن أخرَجَ هذا الخبر، فإن فعلتَ، زدتُ في رزقك وأجزتك بكذا وكذا، وإن لم تخرجه، نفيتُك إلى عُمَان. وحلف له على الأمْرين.

---

(١) أحد الخلفاء الأقوياء من بني العباس.

(٢) التهوّك مزيج من التهور والتهتك وهي تحمل معنيهما.

(٣) الملابس المزركشة المخصصة للعب واللهو.

(٤) المرافق: الرشاوى وما يشبهها.

(٥) مخبر خاص.

فخرج صاحبُ الخبر من حضرته متحيراً كئيبًا، لا يدرى ما يعمل فى يومه ذلك، مفكرًا كيف يجتهد ويحتال، فما وقع له رأى يعمل عليه.

قال صاحبُ الخبر: فلمّا كان من الغد، بكَّرت إلى دار القاسم، زيادة بكُور على ما جرى به رَسْمى، لفرط قلقى وسهرى تلك اللّيلة، ومحبّتى للبحث.

فجئتُ، ولم يُفتح باب دار القاسم بعد، فجلستُ، فإذا برجلٍ زَمِنٍ يزحف، فى ثياب المكدّين[1]، ومعه مخِلاة، كما تكون مع المُكدّين.

فلمّا جاء إلى الباب، جلس إلى أن فُتِح، فسابقنى إلى الدّخول، فَولَج به البوّابون، وقالوا له: أىُّ شىء خبرك يا فلان؟، وصفعوه، ومازحوه، ومازحهم، وطايبهم، وشتموه، وجلس فى الدّهليز.

فقال: الوزير يركب اليوم؟

قالوا: نعم، السّاعةَ يركب.

قال: وأىّ وقت نام البارحة؟

قالوا: وقت كذ وكذا.

فلمّا رأيته يسأل عن هذا، خمّنتُ عليه أنّه صاحب خبر، فأصغيتُ إليه، ولم أرِه أنّى حافلٌ بأمره وهو يسأل، إلى أن لم يُبقِ شيئًا يجوز أن يعلَمَه البوّابون، عمّن وصل إلى الوزير، ومَن لم يصل، ومتى خرجوا، إلا سألهم عنه، وحدّثوه هم، أحاديث أخر، على سبيل الفُضُول.

ثمّ زحف فدخل إلى حيث أصحاب السُّتور، فأخذ معهم فى مثل ذلك، وأخذوا معه فى مثله.

ثمّ زحف فدخل دار العامّة.

فقلت لأصحاب الستور: مَن هذا؟

---

(١) الزمن (بكسر الميم): العجوز الذى أضناه طول الزمن، والمكدّ: الشحاذ.

فقالوا: رجل زَمِنٌ فقير أبْلَهٌ طيّب، يدخل الدّار يتصدّق[1] ويتطايب، فيَهَبُ له الغِلمان والمتصرّفون.

فتبعته إلى أن دخل المطبخ، فسأل عمّا أكلَ الوزير، ومَن كان معه على المائدة، وكلّ واحد يخبره بشيء، ثمّ خرج يزحف، حتّى دخل حجرة الشّراب، فلم يزل يبحث عن كلّ شيء، فيحدّث به، ثم خرج إلى خزانة الكُسوة، فكانت صورته كذلك، ثمّ جاء إلى مجلس الكتّاب في الدّيوان، فتصدّق، وأقبل يسمع ما يجري، ويسأل الصّبيّ بعد الصّبي، والحَدَث بعد الحَدَث، عن الشيء بعد الشيء، ويستخبر الخبر، في كلّ موضع من تلك المواضيع، ويستقيه، ويخلط الجِدّ بالمزح، والتطايب بكلامه، والأخبار تنجرّ إليه، وتتساقط عليه، والقطع والزلّات[2] تجيئه، وهو يملأ المخِلاة، فلمّا فرغ من هذا، أقبل راجعًا يريد الباب.

فلمّا بلغ الباب تَبِعْتُه، فخرج حتّى جاء إلى موضع من الخُلْد، فدخل إليه، فوقفتُ أنتظره، فإذا هو بعد ساعة، قد خرج شابًّا بثياب حِسان، ماشيًا، بعير عِلَّة، فتبعته حتّى جاء إلى دارٍ بقرب دار الخادم الموكّل بحفظ دار طاهر، فدخلها.

فسألتُ عنها، فقالوا: هذه دار فلان الهاشمي، رجل مُتَجمّل.

فرصدته إلى وقت المغرب، فجاء خادمٌ من دار ابن طاهر، فدقّ الباب، فكلّمه من خُوخَة له، ففتح له ورمى إليه برُقعة لطيفة، فأخذها الخادم وانصرف.

فجئتُ، فطلبتُ من الوزير غلمانًا، فسلّم إليّ ما طلبت، فبكّرتُ في السّحَر إلى الدّار التي في الخُلْد، فإذا بالرّجل قد جاء بزيّه الذي دخل به داره بقرب دار ابن طاهر، فكَبَسْتُه في الموضع، فإذا هو قد نزع تلك الثياب، ولبس ثياب المُكدّين التي رأيتُها عليه أوّلاً.

فحملته، وغطّيتُ وجهَه، وكتمتُ أمره، حتّى أدخلته دار القاسم، ودخلتُ إليه، فقصصتُ عليه الخبر.

---

(١) يتصدق -هنا- بمعنى يطلب الصدقة.

(٢) الزلات: الصدقات.

فلمّا فرغ القاسم من شُغله، استدعاه، فقال له: اصدُقْنى عن أمرك، أو لا ترى ضوء الدّنيا، ولا تخرج من هذه الحجرة -واللهِ- أبدًا.

قال: وتؤمّننى؟

قال: أنت آمن، فنهض لا علّةَ به.

فتحيّر القاسم، وقال له: خبرك؟

فقال: أنا فلان الهاشمى، وأنا رجل متجمّل، وأنا أتخبَّر عليك للمعتضِد، منذ كذا وكذا، وأنزل فى دَرْب يعقوب، بقرب دار ابن طاهر، ويجرى علىّ المعتضد فى كل شهر خمسين دينارًا، فأخرج كلّ يوم من بيتى، بالزّى لا يُنكره جيرانى فأدخل دارًا فى الخُلْد، بيدى منها بيتٌ بأجرة، فيظنّ أهلها أنّى منهم[1]، ولا ينكرون تغيير الزىّ.

فأخرج من هناك بهذه الثّياب، وأتزامن من الموضع وألبسَ لحية فوقَ لحْيتى مخالَفةً للون لحيتى، حتّى إذا لقينى فى الطريق -بالاتّفاق- بعض مَن يعرفنى، أنكرنى.

فأمشى زحفًا من الخُلْد إلى دارك، فأعمل جميع ما حكاه صاحب خبرك، وأستقى أخبارَك من غلمانك، وهم لا يعرفون غرضى فيُخرجون إلىّ من الأسرار -بالاسترسال- ما لو بُذِلَ لهم فيه الأموال ما خرجوا به.

ثمّ أخرج فأجىء إلى موضعى من الخُلْد، فأغيّر ثيابى، وأعطى ذلك الذى اجتمع لى فى المِخلاة للمُكدّين، وألبَس ثيابى التى يعرفنى بها جيرانى، وأعود إلى منزلى، فآكل، وأشرب، وألعب، بقيّةَ يومى.

فإذا كان المغرب جاءنى خادمٌ من خدم دار ابن طاهر، مندوبٌ لهذا فأرمى إليه من رَوْزَنَةٍ[2] لى، رُقعة فيها خبر ذلك اليوم، ولا أفتح له بابى.

فإذا كان بعد تسعة وعشرين يومًا، جاءنى الخادم، فأنزل إليه، فأعطيه رُقعة ذلك اليوم، ويعطينى جارى ذلك الشّهر.

---

(١) هذا يعنى أن أهل المنطقة من محترفى التسول والاحتيال.

(٢) الروزنة: كوة أو فتحة فى الجدار. فى ريف مصر: ناروزة.

ولولا أنّى لم أر صاحب خبرك، ولا فطنتُ له، لما تمّ علىّ هذا، ولو كنتُ لحظتُه لحظةً واحدة، ما خفى علىَّ أنّه صاحب خبر، ولكنتُ أرجع من الموضع الذى أراه فيه، فلا يعرف خبرى، وبعد ذلك فإنّما تمّ علىّ هذا لأنّ أجلى قد حضر فالله، الله، فى دمى.

فقال له: اصدُقنى عما رفعته إلى المعتضِد عنّى، فحدّثه بأشياء رفعها، منها خبر الثّياب المصبّغة.

قال: فحبسه القاسم أيّامًا، وأخفى أمره، وأنفذنى إلى منزله، وقال: راعِ أمرهم، وانظر ما يجرى.

فمضيتُ إلى داره التى وصفها بدرب يعقوب، فجلستُ إلى المغرب، فجاء الخادم، فصاح به.

فقالت له الجارية: ما رجع اليوم، وهذه لم تكن عادته قط، وقد -والله- أشفَقْنا أن يكون قد حدث عليه حادث لا نعرفه. وقامت قيامتنا، فانصرف الخادم. وانصرفت.

وعدتُ أيضًا المغرب من الغد، وجاء الخادم، فقالوا له: قد -والله- أيِسْنا منه، ولا نشكّ فى أنّه قد هلك، والمأتم قد أقيم عليه فى منزل أبيه وعمومته.

فانصرف الخادم، وجئتُ إلى القاسم بالخبر.

فلمّا كان من الغد، ركب القاسم إلى المعتضِد، فحين رآه استدناه، وسارّه، وقال له: يا قاسم، بحياتى، أطلِقْ الهاشمىَّ المُتَزامِن، وأحسِنْ إليه، وأنت آمن بعدها أن أنصب عليك صاحب خبر، ووالله لئن حدثت به حادثة، لا عرفتُ فى دمه غيرَك.

فقبل الأرض، وتلجلج، وانصرف، فعاد إلى منزله، وحمِدَ الله إذ لم يعجل عليه بسوء، وأخبرنا الخبر، وجاء الهاشمىّ، فخلع عليه، ووصله بمال له قدر، وصرفه.

وانقطعت أخباره عن المعتضِد.

●●●

٩- وَاحِدٌ مِنهم

ذكر ابن عَبْدوس فى كتابه «الوزراء»، قال:

كان الرّشيد قد قلّد فَرَجًا الرُّخَّجى[1] الأهوازَ، فاتّصلت السِّعَايات به عنده، وكثرت الشكايات منه، وتظلّم الرعية، وادُّعِىَ عليه أنّه اقتطع مالاً عظيمًا، فصرفه بمحمّد بن أبان الأنبارى، وقبض عليه.

وحدث للرّشيد سفر، فأشخصه معه، فلمّا كان فى بعض الطّريق دعا به، فقال مَطَرُ بن سعيد، كاتبُ فَرَج: فلمّا أمر بإحضاره، حضر وأنا معه، ولستُ أشكّ فى الإيقاع به، وإزالة نعمته، فوقفتُ بباب مضْرَب الرّشيد، ودخل فرج، ونحن نتوقّعه أن يخرج منكوبًا، إذ خرج وعليه الخِلَعُ، فتضاعفت النعمة عندى، وسرتُ معه إلى منزله.

فلمَّا خلا سألتُه عن خبره، فقال: دخلتُ عليه ووجهه إلى الحائط، وظهرُهُ إلىّ، فلمّا أحسّ بى، شتمنى أقبحَ شَتْم، وتوعّدنى أشدُّ توعّد.

ثمّ قال: يا ابنَ الفاعلة، رفعتُك فوقَ قَدْرِك، واتّمَنْتُك، فخنتَنى، وسرقتَ ما لى، وفعلت، وصنعت، والله، لأفعلنّ بك، ولأصنعنّ.

فلمّا سكت، قلت: القول ما قاله أميرُ المؤمنين فى إنعامه، وأكثرَ منه، وحلفتُ بأيْمان البيعة وغيرها، أنّى ناصحتُ وما سرقتُ، ووفّرتُ وما خنتُ، واستقصيتُ حقوقَه من غير ظُلم، ولكنّى كنت إذا حضر وقتُ الغَلاَّت، جمعتُ التجّار وناديتُ عليها، فإذا تقرّرت العطايا أنفَذْتُ البيع، وجعلت لى مع التجّار حِصّة، فربّما رَبِحْتُ، وربّما وضعت، إلى أن اجتمع لى من ذلك

---

(١) فرج الرخجى من عمّال الرشيد، موصوف بقبح المظهر والمخبر، والظلم، والسرقة، وقد اعترف فى هذا الخبر بمتاجرته -بنفوذه- فى أملاك الدولة، وكان هذا الاعتراف طريقه للبقاء فى وظيفته، كواحد من أهل الثقة، أو كلاب الصيد.

وغـيره، فى عـدّة سنين، عشـرون ألف ألف درهم، فاتّخـذتُ أزجًا كـبيـرًا، وأودعته المال، وسددّته عليه، فَخُذْها، وحوِّل وجَهك إلى عبدكِ، وكرّرتُ عليه الأيْمان، بأيْمان البيعة على صدقى.

فقال لى: بارك اللهُ لك فى مالِك، ارجع إلى عملك.

●●●

١٠- كَمَا تَدِينُ...

حدّثنى علىّ بن هشام بـن عبد الله الكاتب، ويُعرف هشام بأبى قـيراط، قال: كنت حاضـرًا مع أبى رحمه الله، فى مجلس أبى الحـسن بن الفُرات[١] فى شهر ربيع الأوّل سنة خمس وثلثمائة، فى وزارته الثانية، فسمعته يتحدّث، قال:

دخل علىّ أبو الهيـثم العبّاس بن محـمّد بن ثَوَابة الأنبارى، فى محـبسى بدار الـمُقتدر[٢]، فطالبنى بكَتْب خطّى بثلاث عشر ألف ألف دينار.

فقلت: والله، ما جرى قدر هذا المال، على يدى للسلطان، فى طول وزارتى، فكيف أصَادَرُ على مثله؟

فقال: قد حلـفتُ بالطّلاق أنّه لابدّ من أنّك تكتب خطّك بذلك، فكتبتُ ثلاثة عشر ألف ألف، من غير ما أذكر ما هى، أو ضمانًا فيها.

قال: فاكتب دينارًا، لتبرَينى من يمينى.

فكتبتُ دينارًا، ثـمّ ضَرَبْتُ عليه، وأكلتُ الرُّقـعة[٣]، وقلت له: قد بَرِئْتَ من يمينك، ولا سبيل إلى غير هذا منّى.

فاجتهد بى، فلم أجبه إلى شىء، فحبسنى.

فلمّا كـان من الغد، ، دخل إلى الحبس، ومعـه أمّ موسى[٤]، فطالبنى بذلك، وأسرف فى سبّى وشتمى، ورمانى بالزّنا.

---

(١) ابن الفرات بطل هذه القصة شغل منصب الوزارة ثلاث مرات، فى مرتين يخرج من الوزارة إلى السجن، وفى ختام الثالثة قتل. والحادثة هنا عن سجنه الثانى، تأمل مقادير الأموال التى اتهم بجنيها من منصبه.

(٢) الخليفة العباسى، وكان فى داره مكان لسجن الكبراء، أما المقتدر فكان طفلاً وكانت السّلطة الفعلية فى يد خمسة من الغلمان والنساء!!

(٣) فى موقف طرفاه وزير خطير، وكاتب الخليفة جاء يحاسبه، يتصرف الوزير تصرف السوقة (يأكل الورقة) والكاتب يسب بلغة الأوباش.. وهذا هو العصر فى صورته الداخلية المؤلمة.

(٤) القهرمانة ذات النفوذ فى ذلك الوقت.

فحلفتُ بالطّلاق، والعتاق، والأيمان المُغلَظة، أنّى ما دخلتُ فى محظور من هذا الجنس، من نيِّف وثلاثين سنة، وسُمتُه أن يحلفَ بمثل تلك اليمين أنّ غلامه القائمَ على رأسه، لم يَأتِهِ فى ليلته تلك، فأنكرت أمّ موسى هذا الحال، وغطّت وجهَها حياءً منه.

فقال ابنُ ثَوابة: إنّ هذا إنّما تُبْطِره الأموال التى وراءه، ومثله فى ذلك كمثل المزّين مع كسرى، والحجّام مع الحجّاج، فتستأمرين السّادةَ، فى إنزال المكروه به، حتّى يُذعِنَ بالأموال.

قال أبو الحسين: ويعنى بالسّادة: المقتدر، ووالدته، وخالته خاطف، ودستنبويه أمّ ولد المعتضِد، لأنّهم كانوا -إذ ذاك- يدبّرون الأمور، لحداثة سنّ المقتدر.

قال ابنُ الفرُات: فمضت أمّ موسى، ثمّ عادت، فقالت لابن ثوابة: السّادة يقولون لك: صدقتَ فيما ذكرتَ، ويدك مطلقةٌ فيه.

وكنتُ فى دار ضيّقة، فى حرّ شديد فأمر بكَشْف البوارى[1] حتّى صرتُ فى الشّمس، ونُحّىَ الحصير من تحتى، وأغلق أبواب البيوت، حتّى حَصَلْتُ فى الصّحن، ثمّ قيّدنى بقيد ثقيل، وألبسنى جبّة صوف قد نقعت فى ماء الأكارع[2]، وغلّنى بِغُل[3]، وأقفل باب الحجرة وانصرف، فأشرفتُ على التّلف.

وعدّدتُ على نفسى ذنوبى، فوجدتُنى قد عُومِلتُ بما عَامَلتُ به النّاس، من المصادرة، ونَهْبِ المنازل، وقبْضِ الضّياع، وتسليم النّاس إلى أعدائهم، وحبسهم، وتقييدهم، وإلباسهم جِبَاب الصّوف، وهتْكَ حريمِهم، وإقامتهم فى الشّموس، وإفرادهم فى الحبوس.

ثمّ قلت: ما غَلَلْتُ أحدًا، فكيف غُلِلْتُ؟[4].

---

(١) البوارى: ستائر الحصير التى تحمى من الشمس.

(٢) الأكارع: ما يُطلق عليه العامة: الكوارع.

(٣) الغل (بضم الغين): القيد من الحديد أو الحبال، يجمع اليدين إلى العنق.

(٤) ياله من سؤال برىء!! كأن كل ما اعترف به لا يكفى أن يُغَل فى سقر!!

ثمّ تذكّرتُ أنّ النَّرسْى، كاتبَ الطائىِّ، كان سَلَّمَه إلىَّ عبيد الله ابن سليمان، لمال عليه، فسلّمتُه إلى الحسن، المعروف بالمعلوف، المستخرِج، وكان عَسُوفًا، وأمرتُه بتقييده، وتعذيبه، ومطالبته بمال ذكرتُه له، فألطّ به[1]، فأمرتُ به أن يُغَلّ، ثم تَحَوَّبْتُ بعد أن غُلَّ مقدار ساعتين من النّهار، فأمرتُ بأخذ الغُلّ عنه.

فلمّا جازت السَّاعتان، تذكّرتُ شيئًا آخر، وهو أنّه لما قرب سِبَكْرَى من الجبل، مع رسول صاحب خُراسان، مأسورًا، كتبتُ إلى بعض عمّال المشرق، بمطالبته بأمواله وودائعه، فكتب إلىّ بإلطاطه، فكتبت بأن يُغَلَّ، وكنت أتغدّى، فلمّا غسلتُ يدى، تندّمتُ، وتَحَوَّبتُ، فكتبتُ بأن يحلّ الغُلّ عنه إن كان قد غُلَّ، فوصّل الكتاب الأوّل فغُلّ، ووصل الكتاب الثّانى بعد ساعتين، فحُلَّ عنه، على ما كتبتُ به.

فلمّا مضت أربع ساعات، إذا بصوت غلمان مجتازين فى الممّر الّذى فيه الحجرة الّتى أنا محبوس فيها، فقال لى الخدم الموكّلون بى: هذا بَدْرٌ الحَرَمِىُّ[2] وهو لك صَنِيعَةٌ.

فاستغثت به، وصحتُ: يا أبا الخير، اللهَ، اللهَ، فىّ، لى عليك حقوق، وقد ترى حالى، والموت أسهل ممّا أنا فيه، فتخاطبُ السّادةَ فى أمرى، وتذكّرهم حرمتى، وخدمتى فى تثبيت دولتهم، إذ خذلهم النّاس[3]، وافتتاحى البلدان المنغلقة، وإثارتى الأموالَ المنكسرة، فإن كان ذنبى يوجب القتل، فالسّيفُ أرْوَحُ لى. فرجع، فدخل إليهم، فخاطبهم ورقّقهم، ولم يبرَح حتّى أمروا بأخذ حديدى، وإدخالى الحمّام، وأخْذِ شعرى، وتغيير لباسى، وتسليمى إلى زَيْدان[4]، وترفيهى.

فجاءنى بذلك، وقال: يقولون لك، لن ترى بعدها بأسا، وأقمت عند زيدان، إلى أن رُددت إلى هذا المجلس.

---

(١) ألط -كما يدل السياق- راوغ وتهرب.

(٢) الحرمى: نسبة إلى حرم الخليفة، فهو المسئول عن قصر النساء، أو قصورهن.

(٣) يذكرهم بموقفه معهم فى فتنة ابن المعتز، إذ وقف ابن الفرات فى جانب المقتدر.

(٤) زيدان الكهرمانة، ومعنى العبارة أنه نقل ليسجن عندها سجنًا مخففًا، وكانت زيدان تؤثره، وتتجسس له، فكان هذا مقدمة لإطلاقه، وإعادته إلى الوزارة.. وقد كان.

١١- صَفَاءُ البَدِيهة

حدّثنى علىّ بن محمّد النَّوفلى:

إنّ المأمون ذكر عَمرو بنَ مَسْعَدة[١]، فاستبطأه فى أشياء، وقال: أيحسَب عمرو أنّى لا أعرف أخباره، وما يُجبىَ إليه، وما يعامِل به الناس، بلى والله، ثم يظنّ أنّه لا يسقط علىّ منه شىء؟ وكان أحمدُ بنُ أبى خالد حاضرًا لذلك، فمضى إلى عمرو، فأخبره بما قال المأمون.

فنهض من ساعته، ودخل إلى المأمون، فرمى بسيفه، وقال: أنا عائذٌ بالله من سَخَط أمير المؤمنين، وأنا أقلّ من أن يشكونى إلى أحد، أو يُسِرُّ علىّ ضِغْنًا يَظهر منه بكلامه ما ظهر.

فقال له المأمون: وما ذاك؟ فأخبره بما بلغه.

فقال له: لم يكن الأمر كذلك، وإنّما جرى معنًى أوجب ذكرَ ما ذكرتُ، فقدّمته قبل أن أخبرَك به، وكان ذلك عزمى، وما لك عندى إلا ما تحبّ، فليُفْرِخْ رَوْعُك، ولْيَحْسُنْ ظنُّك، وسكَّنَ منه حتى شكره، وجعل ماء الحياة يدور فى وجهه.

فلمّا دخل أحمد بن أبى خالد إلى المأمون، قال له: أشكو إليك مَن بحضرتى من خدمى وأهلى، أما لمجلسى حقّ ولا حُرْمةٌ ليُكتم ما يجرى فيه، حتى يؤدَّى إلى عَمرو بنِ مَسْعَدة؟ فإنّه قد أبلغَ أشياء قلتها فيه، واتّهمت فيها بعضَ بنى هاشم ممّن كان حاضرًا، وذلك أنّ عمرًا دخل علىّ، وأعاد ما كان، فاعتذرتُ له بعذر لم يُبِنِ الحقّ نسجُه، ولم يتّسق القولُ منى فيه، وإنّ لسان الباطل، لعىّ الظاهر والباطن، وما نَعَشَ الباطلُ أحدًا، قال له أحمد: لا يتّهم أمير المؤمنين أحدًا، أنا أخبرت عَمْرًا.

---

(١) عمرو بن مسعدة وزير المأمون، معدود من البلغاء. والسياق يدل على أن المأمون تحدّث عن وزيره، ولم يكن حاضرًا.

قال: وما دعاك إلى ذلك؟

قال: الشكر لله، ولك لاصطناعك، والنصحُ لك، والمحبّة لـتمام نعمتك على أوليائك وخدمك، وقد علمتُ أنّ أمير المؤمنين يحـبّ استصلاح الأعداء والبُعَداء، فكيف بالأولياء والقرباء، ولا سيّـما مثل عمرو، فى موضعـه من الدولة، وموقعه من الخدمـة، ومكانه من رأى أمـير المؤمنين، فـخبّرتُه بما أنـكَرَه عليه، ليـقوِّمَ أوَدَ نفسه، ويتلافى ما فَرَطَ منه، وإنّما العيْبُ لو أفـشيْتُ كلامًا فيه لأمير المؤمنين سرٌّ، أو قدْحٌ على السلطان، أو نقضُ تدبيرٍ له.

فقـال له: أحسنتَ والله يا أحمـد، إذ كفيتنى مـخاضة الظنّ، وصَـدَقْتَنى عن نفسك، وأزلتَ التُّهمةَ عن غيرك.

●●●

١٢- اللَّبِنَةُ الأخِيرة

حدثنى الحسين بن نُمَيْر الخُزَاعى، قال:

صار الفَضْلُ بن الرّبيع إلى الفَضْلِ بن يَحيى بن خالد البرمكى[1] فى حاجة له، فلم يرفعْ له رأسًا، ولا قضى حاجته، فقام مُغْضَبًا، فلم يَدْعُ بدابّته، ولا اكترث له، ثم أتبعه رجلاً، فقال: انظر ما يقول، فإن الرّجل ينبئ عما فى نفسه فى ثلاثة مواضع: إذا اضطجع على فراشه، وإذا خلا بِعِرْسه، وإذا استوى على سَرْجه، قال الرّجل: فاتّبعته، فلما استوى على سرجه، عضّ على شفتيه، وقال:

عسى وعسى يَثْنِى الزّمانُ عِنَانَه ... بِدَوْرِ زمانٍ والزّمانُ يدورُ

فيُعقِبَ رَوْعَاتٍ سروراً وغِبطةً ... وتحدثُ من بعد الأمور أمورُ

لم يكن بين ذلك، وبين أن سَخِط الرّشيد على البرامكة، واستوزر الفضل ابن الرّبيع، إلا أيّامًا يسيرة.

وحدّثنى بهذا الخبر، أبى، على مثل هذا الإسناد، ولم أحفظه، لأنّى لم أكتبه عنه فى الحال، فقال فى البيت الأوّل:

عسى وعسى يَثْنِى الزّمانُ عِنَانَه ... بِعَشْرَةِ دَهْرٍ والزّمانُ عَثُور

وقال فى البيت الثانى:

فَتُدرَكُ حاجاتٌ وتُقضَى مآربٌ ... وتحدثُ من بعدِ الأمورِ أمورُ

وزاد فيه: أنّ الفضل بن يحيى بن خالد رده فقضى حوائجه.

●●●

(١) الفضل بن الربيع زعيم الحزب العربى، والفضل بن يحيى البرمكى قطب الحزب الفارسى فى البلاط العباسى، بينهما عداوة راسخة تغلّب فيها البرامكة بحلمهم، ثم تغلب ابن الربيع بدهائه. وهذا الحادث بمثابة اللبنة الأخيرة فى حائط العداء المستحكم.

١٣- أَمَويةٌ على بابِ عبأسيَّة

قالت زينب بنت سليمان الهاشمية: كنتُ -من أوّل أمس- عند الخَيْزُرَان[١]، ومجلسى ومجلسها -إذا اجتمعنا- فى عتبة باب الرُّواق، وبالقرب منّا فى صدر المكان، برذَعة[٢]، ووسادتان، ومسانيد، عليها سبنيّة[٣]، لأمير المؤمنين.

وهو كثير الدخول إليها والجلوس عندها، فإذا جاء جلس فى ذلك الموضع، وإذا انصرف، طرحت عليه السبنية إلى وقت رجوعه، فإنّا لجُلوس، إذ دخلت عليها إحدى جواريها، فقالت: يا ستى، بالباب امرأة ما رأيتُ أحسنَ منها وجهًا، ولا أسوأ حالاً، عليها قميص ما يستر بعضُه موضعًا من بدنها، إلا انكشف منها موضع آخر غيرُه، تستأذن عليك.

فالتفتت إلىّ، وقالت: ما تَرَيْن؟

فقلت: تسألين عن اسمها، وحالها، ثم تأذنين لها على عِلْم، فقالت الجارية: قد والله جَهدت بها كل الجَهْد، أن تفعل، فما فعلت، وأرادت الانصراف، فمنعتها.

فقلت للخيزران: وما عليك أن تأذنى لها، فأنتِ منها بين ثواب ومَكْرُمة، فأذنَتْ لها.

فدخلت امرأة على أكثر مما وصفَتْ الجارية، وهى مستخفية، حتى صارت إلى عِضَادة[٤] الباب، مما يلينى، وكنتُ متّكئة.

فقالت: السلام عليكم، فرددنا عليها السلام.

---

(١) الخيزران: هى زوجة الخليفة العباسى: المهدى، وأم الخليفتين: الهادى والرشيد، وكانت جليستها زينب بنت سليمان، حين أقبلت مزنة زوجة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وقد قتله العباسيون.. لقد جاءت مزنة تحتمى بأعدائها من فعل الزمن.

(٢) برذعة: كنبة صغيرة للراحة.

(٣) سبنية: فرش لحماية الكنبة التى يجلس عليها الخليفة.

(٤) الإطار الخشبى الذى يثبت فيه الباب. فى لغة النجارين يسمى «حلَق الباب».

ثم قالت للخيزران: أنا امرأةُ مَرْوان بن محمد.

قالت: فلمّا وقع اسمها فى أذنى، استويتُ جالسة، ثم قلت: مُزْنة؟

قالت: نعم.

قلت: لا حيّاك الـله، ولا قرّبك، الحمد لله الذى أزال نِعـمتك، وأذَالَ عزّك، وصيّرك نَكالاً وعـبرة، أتذكرين يا عدوة الله، حين أتاك عجـائزُ أهل بيتى يسألنَك أن تكلمى صـاحبَك فى إنزال إبراهيم بن مـحمّد من خـشبـته[1] فلقيتـيهن ذلك اللقاء، وأخرجتيهن ذلك الإخراج، الحمد لله الذى أزال نعمتك.

فضحكت -والله- المرأة، حـتى كادت تقهقه، وبدا لها ثَغْـر، ما رأيتُ أحسن منه قط.

وقالت: أى بنت عم[2]، أى شىء أعـجبك من حُـسْن صُنْع الله بى على ذلك الفعل، حتى أردتِ أن تتأسّى[3] بى، والله، لقد فعلتُ بنساء أهل بيتك، ما فعلت، فأسلمنى الله إليك جائـعةً، ذليلةً، عريانةً، فكان هذا مقدار شكرك لله تعالى على ما أوْلاك فىّ، ثم قالت: السلام عليكم.

ثم ولّت خارجة تمشى خلاف المِشية التى دخلت بها.

فقلت للخيزران: إنّهـا مُخَبّأة[4] من الله عَزَّ وجَلَّ، وهدية منه إلينا، ووالله -يا خَيْزُرَان- لا يتولّى إخراجَها بما هى فيه أحدٌ غيرى.

ثم نهضْـتُ على أثَرِها، فلما أحـسّت بى أسرعَتْ، وأسـرعْتُ خلفهـا، حتى وافيتُها عند السِّتْر، ولحقتنى الخَيْزَران، فتعلّقَتْ بها.

---

(١) إبراهيم بن محمـد عباسى هاشمى قتله الأمـويون وصلبوه، ورفضت مزنة -أيام عـزها- أن تكلم زوجها الخليفة فى إنزاله عن آلة الصلب.

(٢) لا غرابة فى نداء خصمها بابنة العم فالأمويون والعباسيون من قريش.

(٣) تتأسى: تقتدى وتقلدى.

(٤) أى أن الله تعالى أرسلها اختباراً لنا ليرى هل نحـسن أو نسـىء إلى من سبقت إساءته إلينا.

وقلت: يا أختُ، المعذرةُ إلى الله -عَزَّ وجَلَّ- وإليك، فإنّى ذكرتُ، بمكانك، ما نالنا من المصيبة بصاحبنا، فكان منى ما وددتُ أنى غَفَلت عنه، ولم أملك نفسى.

وأردتُ معانقتها، فوضعت يدها فى صدرى، وقالت: لا تفعلى، يا أخت، فإنّى على حال، أصوتُك من الدنوِّ منها.

فرددناها، وقلت للجوارى: أدخُلنَ معها الحمّام.

وقلت للمواشط: اذَهْبنَ معها، حتى تُصلِحْنَ حِفَافها، وما تحتاج إلى إصلاحه من وجهها.

فمضت، ومضيّن معها، ودعونا بكرسى، وجلسنا أنا والخيْزُرَانُ عليه، فى صحن الدار، ننتظر خروجها.

فخرجت إلينا إحدى المواشِط وهى تضحك.

فقلت لها: ما يُضحكك؟

فقالت: يا ستّى، إنا لنرى من هذه المرأة عجبًا.

فقلت: وما هو؟

فقالت: نحن معها فى انْتِهَار، وزَجْر، وخصومة، ما تفعلين أنت، ولا ستُّنا، مثله إذا خدمناكما.

فقلت للخيزران: حتى تعلمين -والله- يا أختى أنّها حرّة رئيسة، والحرّة لا تَحْتَشِمُ من الأحرار.

وخرجت إلينا جاريةٌ أعلمتنا أنها قد خرجت من الحمّام، فوجّهت إليها الخيزران أصناف الخلع، فتخيّرت منها ما لبسته، وبعثنا إليها بطيب كثير، فتطيبت، ثم خرجت إلينا.

فقمنا جميعًا، فعانقناها، فقالت: الآن، نعم.

ثم جئنا إلى الموضع الذى يجلس فيه أمير المؤمنين المهدى، فأقعدناها فيه.

ثم قالت الخيزران: إن غداءنا قد تأخر، فهل لك فى الطعام؟

فقالت: والله ما فيكنّ من هى أحوجُ إليه منى.

فدعونا بالطعام، فجعلت تأكل، وتضع بين أيدينا، حتى كأنّها فى منزلها.

فلمّا فرغنا من الأكل، قالت لها الخيزران: من لك ممن تعنين به؟

قالت: ما لى وراء هذا الحائط أحدٌ من خلق الله تعالى.

فقالت لها الخيزران: فهل لك فى المقام عندنا، على أن نخلى لك مقصورة من المقاصير، ويحوّل إليها جميع ما تحتاجين إليه، ويستمتع بعضنا ببعض؟

فقالت: ما دُرْتُ إلا على أقلّ من هذا الحال، وإذ قد تفضّل اللهُ -عَزَّ وجَلّ- علىّ بكما، وبهذه النعمة، فلا أقلّ من الشكر لأمير المؤمنين المهدى، لكلّ نعمة، ولكما، فافعلى ما بدا لك، وما أحببتِ.

فقامت الخَيْزُرَانُ، وقمتُ معها، وأقمناها معنا، ودخلنا نطوف بالمقاصير، فاختارت -والله- أوسعها، وأحسنَها.

فملأتها الخيزران، بالجوارى، والوصائف، والخدم، والفَرْش، والآلات، ثم قالت: ننصرف عنكِ، وعليك بمنزلك، حتى تصلحيه، فخلّفناها فى المقصورة، وانصرفنا إلى موضعنا.

فقالت الخيزران: إنّ هذه امرأة رئيسة، وقد عضّها الفقر، وليس يملأ عينها إلا المالُ، ثم بعثت إليها بخمسة آلاف دينار، ومائة ألفِ درهم.

وأرسلت إليها: تكون هذه فى خِزانتك، ووظيفتُك، ووظيفةُ حَشَمِك، قائمةً فى كل يوم، مع وظيفتنا.

ثم لم نلبث أن دخل علينا المهدى، فقلت له: يا سيدى، لك -والله- عندى حديث طريف.

فقال: ما هو؟ فحدّثته بالخبر.

فلمّا قلت له ما كان منّى، من الوثوب عليها، وإسماعها، اقشعر، واصفرّ.

ثم قال: يا زينب، هذا مقدار شكرك لربّك عَزَّ وجَلَّ، وقد أمكنك من عدوّك، وأظفرك به، على هذا الحال الذى تصفين؟ والله، لولا مكانُك منّى، لحلفت أن لا أكلّمَك أبدًا، وأين المرأة؟

قالت: فوفّيته خبرَها، فالتفت إلى الخَيْزُرَان، يصوّب فعلها، وجزَاها خيرًا.

ثم قال لخادم بين يديه: احمل إليها عشرة آلاف دِينار، ومائتى ألف دِرهم، وبلّغها سلامى، وأعلمها أنّه لولا خوفى من احتشامها لسَرْتُ إليها مسلّمًا عليها، ومخبرًا لها بسرورى بها، فقل لها: أنا أخوك، وجميع ما ينفذ فيه أمرى، فأمرك فيه نافذ مقبول.

قالت زينب: فإذا هى قد وردت إلينا مع الخادم، وعلى رأسها دُرَاج ملحَّم[1]، حتى جلست.

فلقيها المهدى أحسن لقاء، فأقعدها عنده ساعة، تحادثه، ثم انصرفت إلى مقصورتها.

●●●

(١) الدراج: كلمة فارسية معناها اللحاف، وفى هذا السياق تعنى ما يشبه الحِرام أو العباءة.

١٤- مَراكِزُ القُوَى.. أيضًا!!

وصف سليمانُ بنُ وَهْبٍ ما جرى له فى أعقاب تولى «المتوكل» الخلافة، وقبضه ومصادرته لرجال عصر أخيه «المعتصم» وفى مقدمتهم القائدُ التركى «إيتاخ» وولداه، وكان سليمان بن وهب كاتبًا -فى تلك الفترة- لإيتاخ- وَصَفَ فقال:

ساعة قُبض على إيتاخ ببغداد. قُبض علىّ بـ«سُرَّ مَنْ رأى»، وسُلّمتُ إلى عبيد الله بن يحيى[١].

وكتب المتوكّل إلى إسحاق بن إبراهيم[٢]. بدخول «سُرّ مَنْ رأى» ليتقوى به على الأتراك، لأنّه كان معه بضعة عشر ألفًا، ولكثرة الطاهريّة (جند خراسان) بخراسان، وشدة شوكتهم.

فلما دخل إسحاقُ «سامراء»، أمر المتوكّل بتسليمى إليه، وقال: هذا عدوّى، ففصّل لحمه عن عظمه، هذا كان يلقانى فى أيّام المعتصم، فلا يبدأنى بالسلام فأبدأه به لحاجتى إليه، فيردّ علىّ كما يردّ المولى على عبده، وكل ما دبّره إيتاخ، فعن رأيه.

فأخذنى إسحاق، وقيّدنى بقيد ثقيل، وألبسنى جبّةً صوف، وحبسنى فى كَنِيف، وأغلق عليّ خمسة أبواب، فكنتُ لا أعرف الليل من النهار.

فأقمتُ على ذلك عشرين يومًا، لا يُفتح علىّ الباب إلا دَفعةً واحدة فى كلّ يوم وليلة، يُدفع إلىّ فيها خبز وملح جريش، وماء حار، فكنت آنس بالخنافس، وبنات وردان[٣]، أتمنّى الموت من شدّة ما أنا فيه.

فعرضَ لى ليلة من الليالى، أن أطلتُ الصلاة، وسجدتُ، فتضرّعتُ إلى الله تعالى، ودعوتُه بالفرج، وقلت فى دعائى: اللهم، إن كنتَ تعلم أنّه كان لى فى

---

(١) أحد كبار الكتاب.

(٢) إسحاق بن إبراهيم بن مصعب (أو المصعبى) قائد شرطة بغداد الجبار.

(٣) بنات وردان: الصراصير.

دم نجاح بن[1] سلمة صُنع، فلا تخلّصنى مما أنا فيه، وإن كنتَ تعلم أنّه لى فيه، ولا فى الدّماء التى سُفِكت، ففرّج عنى.

فما استتممتُ الدّعاء، حتى سمعتُ صوت الأقفال تُفتح، فلم أشكَ أنّه القتل، ففتحت الأبواب، وجىء بالشمع، وحملنى الفرّاشون، لثقَلِ حديدى.

فقلت لحاجبه[2]: سألتُك بالله، اصدُقْنى عن أمرى.

فقال: ما أكل الأمير اليوم شيئًا، لأنّ أغْلظ عليه فى أمرك، وذلك أن أمير المؤمنين وبّخه بسببك، وقال: سلّمتُ إليك سليمان بن وهب تُسَمِّنُهُ أو تستخرج[3] ماله؟

فقال الأمير: أنا صاحبُ سيف، ولا أعرف المُناظرة على الأموال ووجوهها، ولو قُرّر على شىء لطالبته به.

فأمر أمير المؤمنين الكتّاب بالاجتماع عند الأمير لمناظرتك، وإلزامك مالاً يُؤخذ به خطُّك، وتطالب به، وقد اجتمعوا، واستُدْعيتَ لهذا.

قال: فحُملت إلى المجلس، فإذا فيه موسى بن عبد الملك، صاحب ديوان الخَراج، والحسن بن مَخْلد، صاحبُ ديوان الضِّياع، وأحمدُ بن إسرائيل الكاتب، وأبو نوح عيسى بن إبراهيم، كاتبُ الفتح بن خاقان، وداودُ بن الجرّاح، صاحبُ الزّمام، فطُرحتُ فى آخر المجلس.

فشتمنى إسحاقُ أقبحَ شَتْم، وقال: يا فاعل، يا صانع، تعرّضنى لاستبطاء أمير المؤمنين، والله، لأفرّقنّ بين لحمك وعظمك، ولأجعلنّ بطن أرض أحبّ إليك من ظهرها، أين الأموال؟

---

(١) نجاح بن سلمة: أحد الكتّاب، تآمر عليه الكتّاب فى صراعاتهم على السُلطة، وقتلوه، واستصفوا أمواله، بأمر الخليفة، بعد أن أوغروا صدره عليه.

(٢) أى حاجب الأمير إسحاق المصعبى (أمير الشّرطة).

(٣) كان من عادة الخليفة حين يأمر بالقبض على أحد الكبراء أن يسلمه إلى من يساويه أو يعلوه منزلة (يحدد إقامته عنده، أو يسجنه) حتى يرى فيه رأيه، وقد يندب لمحاسبته (محاسبة مالية وسياسية) عددًا من نظرائه فلا يتركونه حتى يلتزم بأموال ضخمة، كما سنرى، وهذا يدل على فساد السياسة والإدارة فى ذلك العصر (الذهبى!!).

فاحتججتُ بنكبة ابن الزيّات لى[1].

فبدرنى الحسنُ بن مخلد، فقال: أخذتَ من النّاس أضعافَ ما أدّيت، وعادت يدك إلى كتبة إيتاخ، فأخذت ضياع السلطان، واقتطعتَها لنفسك، وحزتَها سرَقةً إليك، وأنت تُغلها ألفى ألف درهم، وتتزيّا بزى الوزراء، وقد بَقيَت عليك من تلك المصادرة جملة لم تؤدّها. وأخذت الجماعةُ تواجهُنى بكل قبيح، إلا موسى ابن عبد الملك، فإنّه كان ساكتًا لصداقة كانت بينى وبينه.

فأقبل من بينهم على إسحاق، وقال: يا سيّدى، أتأذن لى فى الخَلوة به لأفصل أمره؟ قال: افعل.

فاستدنانى، فحُملتُ إليه، فسارّنى، وقال: عزيزٌ علىّ يا أخى حالك، وبالله لو كان خلاصُك بنصف ما أملكه لفديتُك به، ولكن صورتَك قبيحة[2]، وما أملك إلا الرأى، فإن قبلتَ منّى، رجوْتُ خلاصك، وإن خالفتنى، فأنت -والله- هالكٌ.

فقلت: لا أخالفك.

فقال: الرأى أن تكتب خطَّك بعشرة آلاف ألف درهم، تؤدّيها فى عشرة أشهر، عند انقضاء كلّ شهر ألف ألف درهم، وتَترفّهُ عاجلاً مما أنت فيه[3].

فسكتُّ سكوت مبهوت، فقال لى: ما لك؟

فقلت له: والله، ما أرجع إلى رُبْعها، إلا بعد بيع عَقارى، ومن يشترى منى وأنا منكوب، وكيف يتوفّر لى الثمن وأنا على هذه الحالة؟

فقال: أنا أعلم أنّك صادق، ولكن احرس نفسك عاجلاً بعِظَم ما تبذله، ويُطمع فيه من جهتك، وأنا من وراء الحيلة لك فى شىء أميلُ به رأى الخليفة من

(١) احتج سليمان بن وهب بأنه سبق القبض عليه واستصفاء ما لديه من مال فى مرة سابقة، تولاها الوزير ابن الزيات.

(٢) أى أن التهمة (السرقة والاستيلاء على ممتلكات الدولة) ثابتة عليك.

(٣) يدعوه للاعتراف بأنه سيدفع للخلافة هذا القدر على عشرة أقساط، وهذا يعنى أن يُرفَع عنه الحبس والعقوبة والمصادرة ليتمكن من الوفاء بما التزم.

جهتك، يعود إلى صلاحك، والله المعين، ومن ساعةٍ إلى ساعة فَرَج، ولا تتعجّل الموت، ولو لم تستفد إلا الرّاحة مما أنت فيه يومًا واحدًا. لكفى[1].

فقلت: لست أتّهم ودّك ولا رأيَك، وأنا أفعل ما تقول.

فأقبل على الجماعة، وقال: يا سادتى، إنى قد أشرتُ عليه أن يكتب خطَّة بشىء لا يُطيقه، فضلاً عما هو أكثر منه، ورجوتُ أن نعاونه بأموالنا وجاهنا، ليمشى أمرُه، وقد واقفته ليكتب بكذا وكذا.

فقالوا: الصواب له أن يفعل هذا.

فدعا لى بدَوَاةٍ وقرطاس، وأخذ خطّى بالمال على نجومه[2]، فلما أخذه، قام قائمًا، وقال لإسحاق: يا سيّدى، هذا رجل قد صار عليه للسلطان -أعزّه الله- مال، وسبيله أن يُرَفَّه، وتُحْرَس نفسُه، وينقل من هذه الحال ويغيّر زيُّه، ويردّ جاهُهُ، بإنزاله دارًا كبيرة، وإخدامه بفرش وآله حسنة، وإخدامه خُدّامًا بين يديه، ويُمكَّنَ من لقاء من يُؤثرُ لقاءه من مُعامليه، ومن يحب لقاءه من أهله وولده وحاشيته، ليجد فى حَمْل المال الحالِّ عليه، قبل محلّه، ونعينه نحن، ويبيع أملاكه، ويرتجع ودائعه ممّن هى عنده[3].

فقال إسحاق: السّاعة أفعلُ ذلك، وأبلغه جميع ما ذكرت، وأمكّنه منه، ونهضت الجماعة.

فأمر إسحاقُ بفكّ حديدى، وإدخالى الحمّام، وجاءنى بخِلعة حسنة وطيب، وبخور، فاستعملته، واستدعانى، فلمّا دخلتُ عليه نهض إلىّ، ولم يكن فى مجلسه أحد، واعتذر إلىّ مما خاطبنى به، وقال: أنا صاحب سَيْف، ومأمور، وقد لحقنى اليوم من أجلك سماعُ كل مكروه، حتى امتنعتُ عن الطعام غمًّا بأن أبتلى

---

(١) هكذا نصحه صديقه (الخفى) موسى بن عبد الملك، وقد صدق فيما وعد، إذ دبّر طريقة تجعل الخليفة يغيّر رأيه فى سليمان بن وهب، ويوليه مصر، بعد أن كان حريصًا على قتله. كما سنرى.

(٢) نجومه: أقساطه.

(٣) أى لابد من أن يستعيد مكانته الاجتماعية ليتمكن من السيطرة على ممتلكاته، ومن ثم الوفاء بالأقساط التى التزم بها.

بقتلك، أو يعتب الخليفة علىّ من أجلك وإنّما خاطبتك بذلك، إقامة عذر عند هؤلاء الأشرار[1]. ليبلغوا الخليفة ذلك، وجعلته وقايةً لك من الضرب والعذاب، فشكرتُه، وقلتُ ما حضرنى من الكلام.

فلما كان من الغد، حوّلنى إلى دار كبيرة، واسعة، حسنة، مفروشة، ووكّل بى فيها، على إحسان عِشْرَةٍ وإجلال، فاستدعيْتُ كل من أريده، وتسامَعَ بى أصحابى، فجاؤونى وفرّج الله عنى.

ومضت سبعة وعشرون يومًا، وقد أعددتُ ألف ألف دِرهم، مال النَّجْم الأوّل[2]، وأنا أتوقّع أن يَحِلّ، فأطالب، فأؤديه، فإذا بموسى بن عبد الملك قد دخل إلىّ، فقمتُ إليه، فقال: أبْشِر.

فقلت: ما الخبر يا سيدى؟

فقال: ورد كتابُ عامل مصر[3]، بمبلغ مال مصر لهذه السنة مجملاً فى مبلغ الحَمْل والنفقات، إلى أن ينفذ حسابه مفصّلاً، فقرأ عبيد الله ذلك على المتوكّل، فوقع إلى ديوانى بإخراج العِبرة لمصر، ليُعرف أثرُ العامل، فأخرجتُ ذلك من ديوان الخَراج والضياع، لأن مصر تجرى فى ديوان الخراج والضياع، وينفذ حسابُها إلى الديوانين، كما قد علمت، وجعلت سنتّك التى تولّيت فيها عمالة مصر، مصدرة، وأوردتُ بعدها السنين النّاقصة عن سنتك، تلطفا فى خلاصك، وجعلتُ أقول: النّقصان فى سنة كذا عن سنة كذا وكذا التى صدّرناها، كذا وكذا ألفًا.

فلما قرأ عبيد الله العمل على المتوكّل، قال: فهذه السنة الوافرة، من كان يتولّى عِمَالتها؟

---

(١) هكذا اختلفت معاملة المصعبى لسليمان بن وهب بعد احتمال العفو عنه، وعودته إلى الحياة العامة.. واختلف رأيه فى كبراء زمانه أيضًا، فهم أشرار، وكذلك كانوا يرونه!!

(٢) النجم الأول: القسط الأول، وستتغير أحواله ويصبح واليًا على مصر، حتى قبل أن يدفع هذا القسط الأول ببركة «مراكز القوى» التى تعمل فى خدمته، وتنتظر معونته فى ظروف أخرى.

(٣) المسؤول عن أموال مصر، وقد جاء صافى إيراد مصر فى هذه السنة هابطًا عن المعدّل، فطلب الخليفة الاطلاع على معدل ما تقدمه مصر للخلافة من مال، وهنا كانت الفرصة لإبراز أن هذا المعدّل كان فى قمته حين تولى سليمان بن وهب هذه الوظيفة، لهذا السبب وحده أعاده الخليفة ورضى عنه.

فقلت أنا: سليمانُ بنُ وَهْب يا أمير المؤمنين.

فقال المتوكّل: فلِمَ لا يُردّ إليها؟

فقلت: وأين سليمانُ بنُ وهب؟ ذاك مقتول بالمطالبة، قد استُصْفى وافتقر.

فقال: تُزَال عنه المطالبة، ويُعان بمائة ألف درهم، ويُعَجّل إخراجه.

فقلت: وتُردّ ضياعه يا أمير المؤمنين، ليرجع جاهه.

قال: لتفعل ذلك، وقد تقدم إلى عبيـد الله بهذا، واستأذنته فى إخراجك فأذن لى، فقم بنا إلى الوزير، وقد كان دخل إلى إسحاق برسالة الخليفة بإطلاقى.

فخـرجتُ من وقتى، ولم أؤدّ من مـال النّجم الأوّل حبّـة واحدة، ورددته إلى موضعه.

وجئتُ إلى عبيد الله، فـوقع لى بمائة ألف درهم معونة على سفرى، ودفع إلىّ عهدى على مصر، فخرجتُ إليها.

●●●